الأدب الحمادي (405–547 هـ) بين الاتباع والإبداع/ قراءة تاريخية

Hammadi literature (405-547 AH) between followers and creativity / historical reading

Littérature Hammadi (405-547 AH) entre adeptes et créativité / lecture historique

مساعدية توفيق [1] *

تاريخ الإرسال: 2022/02/15 **تاريخ القبول:** 2022/04/20 **تاريخ النشر:** 2022/12/02

ملخص:

كان لقيام دولة الحماديين الأثر البالغ في المجال الثقافي حتى عدّ عصرها عصر نهضة ثقافية علمية أدبية، حيث كان لتضافر جهود الأمراء وإبداع العلماء والشعراء الاسهام الواضح في تنشيط الحركة الثقافية، ومن على شرفة هذا الازدهار الثقافي، عرف الأدب الجزائري خلال هذا العهد نبوغ الكثير من الأعلام في الشعر والنثر على حد سواء، لكن تراجم الكثير منهم ضاعت، وما توفر منها يجدها الباحث مشتتة –على قلتها–في مختلف المصادر التاريخية والأدبية، وهذا المقال يحاول الوقوف على تاريخية الأدب الجزائري القديم خلال فترة حكم الحماديين موضحا في ذلك لخصائص هذا الابداع بشقيه الشعري والنثري، ومبينا في الآن نفسه مناحي الاتباع والتجديد مقارنة مع ما سبقه من إنتاج أدبي.

الكلمات المفتاحية: الأدب؛ الحمادي؛ الاتباع؛ الإبداع؛ قراءة تاريخية

Abstract :

The establishment of the state of the Hammadids had a great impact in the cultural field until its era was considered the era of a cultural, scientific and literary renaissance, where the concerted efforts of the princes and the creativity of scholars and poets had a clear contribution to revitalizing the cultural movement, and from the balcony of this cultural prosperity, Algerian literature during this era knew the brilliance of many flags In poetry and prose alike, but the translations of many of them have been lost, and what is available from them the researcher finds scattered - despite its few - in various historical and literary sources. and prose, showing at the same time the aspects of follow-up and renewal compared to the previous literary production.

Keywords: literature; Al Hammadi; followers; creativity; historical reading.

Résumé :

L'établissement de l'État des Hammadides a eu un grand impact dans le domaine culturel jusqu'à ce que son ère soit considérée comme l'ère d'une renaissance culturelle, scientifique et littéraire, où les efforts concertés des princes et la créativité des érudits et des poètes ont eu une contribution évidente. à revitaliser le mouvement culturel, et du balcon de cette prospérité culturelle, la littérature algérienne à cette époque a connu l'éclat de nombreux drapeaux En poésie comme en prose, mais les traductions de beaucoup d'entre elles ont été perdues, et ce qui en est disponible le

* المؤلف المراسل

[1] Messadia taoufik, Department of Arts and Arabic Language, Faculty of Arts and Languages, University of Mentouri Constantine1, Algeria,messadiataoufik@gmail.com

chercheur trouve épars - malgré son petit nombre - dans diverses sources historiques, littéraires et en prose, montrant à la fois des aspects de suivi et de renouvellement par rapport à la production littéraire antérieure.
Mots clés : littérature; Al Hammadi; adeptes; créativité; lecture historique.

مقدمة

استطاعت دولة الحماديين أن ترث أمجاد العهود السابقة عليها، فكونت دولة بربرية دينها الإسلام ولغتها العربية، وكان عصرها عصر نهضة ثقافية علمية أدبية، ويعود فضل هذا الازدهار الثقافي إلى الأمراء الذين تعاقبوا على حكم هذه الدولة، حيث كان منهم " من نبغ في العلم والأدب ونطق بالشعر فأبدع، وكانت الأوساط العلمية راقية قبلهم فزادوها رقيا وانتشارا، وأنشأوا المدارس الكثيرة، وأغرموا بِجَمْعِ مدارس المناظرة، وأمهم العلماء والشعراء" (المدني، 1931، صفحة 81) من أقطار متعددة، كأفريقية والأندلس والشام والعراق وغيرها، حيث تقاطر هؤلاء الوافدون على المراكز العلمية الجزائرية سواء القلعة أو بجاية، وكان إسهامهم في تنشيط الحركة الثقافية إسهاما كبيرا بما حملوه معهم من العلوم والآداب.

ومن على شرفة هذا الازدهار الثقافي، عرف الأدب الجزائري خلال هذا العهد نبوغ الكثير من الأعلام في الشعر والنثر على حد سواء، لكن تراجم الكثير منهم ضاعت، وما بقي منها يجدها الباحث مشتتة –على قلتها–في مختلف المصادر التاريخية والأدبية.

1– في قيام الإمارة وسقوطها

قويت الدولة الفاطمية فاستولت على تيهرت والقيروان، ولما اشتد نفوذها وفتحت مصر وقرر المعز لدين الله الفاطمي الانتقال إليها (361هـ) استخلف على إمارة أفريقية والمغرب عامة الأمير بلكين بن زيري من قبيلة صنهاجة البربرية التي أخلصت له في الولاء والدفاع عن كيان الدولة أيام الخطر (بونار، دت، صفحة 123).

ولما مات بلكين بن زيري (373هـ) خلفه ابنه المنصور (373–386هـ)، والمنصور خلفه ابنه باديس (386–406هـ)، وكان أول ما قام به باديس من الأعمال الإدارية أن عقد لعمه–حماد بن بلكين– على ولايتي المسيلة وأشير، ليقف في وجه قبائل زناتة الثائرة بالمغرب الأوسط (الجيلالي، 1965، صفحة 332)، فقاتلهم حماد وأخمد تمردهم، ثم شرع في بناء مدينة القلعة عام (398هـ) قرب مدينة أشير وشمال شرقي مدينة المسيلة التي نسبت إليه «قلعة بني حماد» وجعلها مقرا لملكه (الطمار، دت، صفحة 41).

ولما ذاع صيته وعظمت هيبته خشي باديس على ملكه، فطلب من حماد أن يستقيل ويرفع يده على ما حازه من جهات شرقية واسعة سنة (405هـ)، لكن حمادا أبى فساءت العلاقة بينهما، وثارت بينهما حروب كاد يظفر فيها باديس بعمه حماد لولا موته الذي فاجأه سنة 406هـ، وهو محاصر لعمه في القلعة، وبتولى المعز بن باديس أمور الحكم، تصالح مع حماد، واعترف له بالاستقلال بولاية الجزائر، التي أسس فيها دولته (بونار، دت، صفحة 133).

كانت عاصمة الحماديين في فترة نشأة الدولة هي القلعة / أشير، ثم انتقلت إلى بجاية على يد الناصر بن علناس (454-481هـ) سنة 460هـ، بسبب هجمات القبائل الهلالية التي تسربت إلى الجزائر خلال تلك الفترة (بونار، دت، صفحة 144).

هذا، ومن المستحسن لفت الانتباه إلى أن القبائل الهلالية تتكون من أعراب بني هلال وبني سليم التي أرسلها الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة 442هـ لما بلغه ما قام به المعز بن باديس من إعلان " انفصاله السياسي عن الفاطميين، ولعن مذهب (الشيعة) الروافض، وأبطل شعائرهم، وقطع الخطبة باسمهم، ودعا للخلافة العباسية ببغداد تثبيتا لملكه..." (الجيلالي، 1965، صفحة 340).

تأثر الخليفة الفاطمي لهذا الانقلاب الديني والسياسي العظيم الذي وقع بأفريقية، ويومها دبرت مكيدة الحملات الهلالية، " وكانت هذه القبائل قبل استقرارها بالصعيد المصري تستوطن بوادي الحجاز، وفي عهد الراشيديين (11-40هـ) أخذت تتسرب إلى الناحية الشرقية من وادي النيل، ولما انتقلت الدولة الفاطمية إلى القاهرة (361هـ)، ورأت أضرارهم وشغبهم في هذه المنطقة تضايقت منهم ونقلتهم إلى الصعيد إلى أن رأت استقدامهم وإرسالهم إلى أفريقية" (بونار، دت، صفحة 134).

نزل هؤلاء الأعراب بأفريقية فأكثروا فيها الفساد والنهب والتخريب ثم زحفوا إلى الزاب -القطر الجزائري-حيث اكتسحوا أراضيه وصولا إلى ضواحي القلعة، ففزع الناصر منهم وشرع في تأسيس بجاية 460هـ، فرارا منهم وتحصنا من هجماتهم (بونار، دت، صفحة 138)، وقد استمر زحف هؤلاء الأعراب حتى امتلكوا أغلب الجهات التي كانت خاضعة لحكم الزيريين والحماديين " إلى أن ظهرت دولة الموحدين بالمغرب الأوسط سنة 547هـ واحتلوا بجاية ثم التقوا بالأعراب في نواحي سطيف وهزموهم شر هزيمة" (بونار، دت، صفحة 139).

لقد كان لنتائج الزحف الهلالي على أفريقية (442هـ) وعلى الجزائر (460هـ) أثر كبير؛ سواء على الحياة الاجتماعية أو في الحياة الثقافية، حيث أثرت لغة التخاطب لقبائل بني هلال في اللسان الأمازيغي الذي كان طاغيا على اللسان العربي، وسارت عملية التعريب متزامنة مع حركة المزج والاحتكاك طيلة قرون عدة حتى كادت العربية تكون اللغة الأولى في عهد الحماديين (بونار، دت، صفحة 196).

2– في أدب إمارة الحماديين

2–1 الإبداع الشعري

ازدهر الشعر في هذا العهد ازدهارا كبيرا، إذ اتسعت موضوعاته وتعددت أغراضه وصفا وغزلا وفخرا ورثاء ومدحا وهجاء وخمريات، وقد وجدت إلى جانب هذه الأغراض التقليدية أغراض أخرى لم يكن لها ذكر في العصر السابق للحماديين كالشعر القصصي عند قاضي ميلة، وشعر التوسلات عند ابن النحوي وشعر الموشحات عند يوسف بن المبارك (بونار، دت، الصفحات 200–201).

ونشير، هنا، أن الجزائر خلال حكم الحماديين عرفت بروز أسماء كثيرة في قرض الشعر " ولكن التاريخ لم يعن بتدوين آثارهم والتعريف بإنتاجهم، فضاع جله ولم تصلنا منه إلاّ نتف نجدها مبعثرة هنا وهناك في مصادر مختلفة " (بونار، دت، صفحة 201)، ومن أشهر هؤلاء الشعراء نذكر:

–محمد بن عبد الكريم النهشلي(ت 405هـ)

لم يعرف عن عبد الكريم النهشلي الشيء الكثير، لأن ما وصلنا من أخباره شذرات مفرقة لا تعطي صورة واضحة عن حياته وعلمه وأدبه (النهشلي، دت، صفحة 03).

نشأ النهشلي في المسيلة التي قضى بها أيام شبابه وتلقى فيها مبادئ الدين وعلوم اللغة العربية، ثم انتقل إلى القيروان– حاضرة العلم آنذاك– حيث لمع نجمه وذاع صيته، فـ" تولى الكتابة في ديوان الخراج، ثم نقل إلى الكتابة في ديوان الإنشاء على عهد المعز بن باديس" (محفوظ، 1994، صفحة 47)، توفي بالمهدية، وعلى رأي آخر بالقيران سنة 405هـ.

من آثاره التي وصلتنا كتابه الممتع في صنعة الشعر الذي ألفه في الشعر وأحواله وفنونه، وقد نقل ابن رشيق جملة من آرائه في كتابه العمدة (محفوظ، 1994، صفحة 47).

كان النهشلي –والقول للصفدي–" شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها" (الصفدي، 2000، صفحة 51)، قال الشعر في أغراض مختلفة كالوصف والمدح والرثاء والحنين، ومن النماذج الشعرية التي نستدل بها على نظمه، هذه الأبيات التي يمدح بها المنصور بن بلكين وابنه باديس، قائلا (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 176):

يشكو هواك إلى الدموع متيّمٌ لم يبق فـيه للعزاءِ نَسِيسُ
لولا الدموع تحرَّقت من شوقه يومَ الـوداع قبابكم والعيسُ

دَرَكُ الزمان وحبّك ابـنة مالكٍ في الصّدر لا خَلَقٌ ولا مدرُوس
فكأنه ما شاده المنصـورُ من رُتَـبِ العلى واختاره باديسُ

ابتدأ النهشلي قصيدته المدحية بالتغزل بمحبوبته ابنة مالك مقتفيا في ذلك طريقة العرب في استفتاح قصائدهم بمقدمات، ثم انتقل بعدها إلى غرض المدح وقد أحسن في ذلك، وعن هذا الانتقال الحسن يقول ابن رشيق: " وأغرب في الانتقال إلى المدح" (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 176).

–ابن أبي الرجال التيهرتي(ت 426هـ)

علي بن أبي الرجال الشيباني يكنى أبا الحسن، كاتب وشاعر ومنجم، ولد بتيهرت وتربى في القيروان، وفيها تولى رئاسة ديوان الإنشاء على عهد الأمير باديس الصنهاجي الذي جعله مربيا ومعلما لابنه المعز (محفوظ، 1994، صفحة 343)، وبعد تولي المعز ملك بني زيري جعله وزيرا، وكانت منزلته لديه سامية، ونفوذه في البلاط عظيم، فتقرب إليه العلماء والأدباء، وكان ابن أبي الرجال شاعرا لطيف الوجدان جيد الأسلوب صادق العاطفة، نظم الشعر في أغراض متعددة لكنه ضاع، وما وصلنا منه إلاّ قطع متناثرة أورد ابن رشيق في عمدته أبيات منها في سياق استشهاده، ومن هذه النماذج التي ذكرها ابن رشيق: " قوله بتيهرت سنة خمس وأربعمائة تشوقا إلى أهله:

ولي كبد مكلومة من فراقكم أُطامـنها صبرا على ما أجنّتِ
تمنَّتْكـــم شوقا إليكم وصبوةً عسى الله أن يدني لها ما تمنَّتِ
وعينٌ جَفَاهَا النومُ واعتادها البكى إذا عنَّ ذكرُ القيروان استهلتِ" (رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 1981، صفحة 134).

فهذه الأبيات التي نظمها ابن أبي الرجال بتيهرت تصور شوقه، وتعبر عن حالة الفقد والحنين لأهله في القيروان الذين غاب عنهم، ولما كان الشاعر قد أبدع في التصوير وأوجز، فقد علق ابن رشيق بعد أن أورد هذه الأبيات في عمدته، بقوله: " لو أن أعرابيا تذكر نجدا فحن به إلى الوطن، أو تشوق فيه إلى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا الحضري المتأخر العصر" (رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 1981، صفحة 134).

–ابن الربيب التاهرتي(ت 420هـ)

الحسن بن محمد التميمي القاضي التاهرتي، المعروف بابن الربيب، أصله من تيهرت، طلب العلم بالقيروان، كان خبيرا باللغة، شاعرا مقدما، متكلفا في الكلام بعض التكلف، توفي بالقيروان سنة 420هـ (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، الصفحات 111–112)،

ضاع شعره، ولم يصلنا منه إلاّ بعض النتف في كتب الأخبار والسير، ذكر له ابن رشيق في أنموذج الزمان بعضا من شعره، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، قوله مادحا (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 112):

ولما التقى الجمعان واستمطر الأسَى مدامِعَ منّا تمطر الموت والدّمَا

لدى مأتم للبـــين غَنَّى به الهوى بشجو وحنّ الشوقُ فيه فأَرزمَا

تصدَّتْ فأشْجَتْ ثمّ صدّتْ فأسلمَتْ ضـميرك للبلوى عقيله أسلمَا

لا يخفى على الناظر في هذه الأبيات التي مدح بها ابن الربيب محمد بن أبي العرب أن تنهض دليلا صريحا على الملكة الشعرية المتفردة التي يتميز بها الشاعر، وكفى بهذا الشعر –والقول لأبن رشيق–" شاهدا بالحذق، لما فيه من القوة والاندفاع، وجزالة اللفظ، والمجانسة بين تصدت وصدت وبين أسلمت وأسلم" (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 112).

–ابن قاضي ميلة

هو أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة، أحد أدباء الجزائر وفقهائها، أثنى عليه ابن رشيق ووصف شعره بأنه شعر قصصي ينحو منحى شعر عمر بن أبي ربيعة، لما قال: " شاعر لسن مقتدر، يؤثر الاستعارة ويكثر الزجر والعيافة، ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات" (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 209).

لم تخبرنا كتب الأخبار والسير عن حياة ابن قاضي ميلة، ولا عما خلفه من نتاج أدبي سوى ما ذكره ابن رشيق من أنه " صحب أباه إلى جزيرة صقلية، وكان مفخما حاذقا فعرف ثقة الدولة (...) فأوطن البلد وصنع فيه قصيدته الفائية" (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، الصفحات 209–210)، التي مدحه بها في عيد النحر، وعن هذه القصيدة يقول ابن خلكان " وهي قصيده بديعة لا توجد بكاملها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب ولم يكن عندي منها سوى البعض، ولا سمعت أحدا يروي منها إلاّ ذلك القدر، فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها" (خلكان، 1994، صفحة 159).

يقول ابن قاضي ميلة في مفتتح قصيدته (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، صفحة 2010):

يُذِيلُ الهوى دمعي وقلبي المـعنَّفُ وتجني جفوني الوجدَ وهو المكلّفُ

وإني ليدعوني إلى مـــا شنفتُهُ وفـــارقت مغناه الأغنُّ المشنّفُ

وأحورُ ساجي الطرف أما وِشاحُه فـــــصفر وأما وقفه فموقَّفُ

يطيب أجاج الماء من نحـو أرضه يحـيي ويندي ريحه وهو حرجفُ

وهذه القصيدة التي نظمها الشاعر في مدح ثقة الدولة وضمنها حواره القصصي مع الفتاه المتغزل بها تعد "في أسلوبها الجديد، وحوارها الخفيف، وروحها القصصية المحبوكة، درة من درر الأدب الفائقة" (بونار، دت، صفحة 223) في العصر الحمادي.

–الفقيه أبو حفص عمر ابن فلفول

لا نعلم شيئا عن سيرة حياته سوى أنه كان شاعرا وكاتبا ليحيى بن العزيز الحمادي(515– 547هـ) وصاحب سره، وفي شعره الذي وصلنا ما أنشده " له الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي عند الاجتماع به في جزيرة صقلية:

وقالوا: نأى عنكَ الحبيب فما الذي تراه إذا بـان الحبيبُ المواصل

فإن أنت أحببتَ التَّصـــبُّرَ بعده ولم تستطع صبرا فما أنت فاعل

فإنّ الهوى مهما تـكَّنَ في الحشا وحلَّ شغاف الـقلب ليس يُزَايِلُ

فكم رام أهلُ الحب قبلك سلوة وزادهم عنها هوًى مـــتواصل

فقلت: ألا للصّبر مفزع عاشـــق وللصّبْرُ أحرى بي وإن غـال غائل

سأصبرُ حتَّى يفتح الله في الهــوى بوصلِ حبيبٍ طال فيها الطوائل" (الأصفهاني، 1986، صفحة 179)

نظم الشاعر هذه الأبيات في غرض الغزل بأسلوب لطيف ومعانٍ جليلة، وقد عكس من خلالها حوارا بين المحبين المكابدين للوعة التصبر وآلام الفراق.

–علي بن الزيتوني الشاعر(حي أوئل القرن 6هـ)

من شعراء الجزائر خلال عهد الحماديين، لا نعلم شيئا عن سيرة حياته باستثناء ما ذكره صاحب الخريدة من أنه " صاحب توشيح وتوشيع وتقسيط وتقطيع وقد سار شعره غناء" (الأصفهاني، 1986، صفحة 181).

أما عن شعره فذكر مقطوعتان،" واحدة في مدح بعض القضاة، وهي:

نَهاه عـــن محارمه نُهاه وقرَّبه لخـــالقه تُقاه

وقـال: الله ليس سوى ربّ ولا لشـريعتي أحدٌ سواه

هو البَرّ العطوفُ على البرايا وبـالأيتام يرحمُ من أتاه

وشَـدّ به عُرى الإسلام حتى رأينا النُّجْح وانعقدت عُراه

أمينٌ، عدلُه غمر البرايـــا فما يُخْشى على أحد قضاه

مسيحٌ، خطوه في كل علـم ومن ذا يقتضي أبدا خطـاه

أبي، شأنه طلب المعالـــي ومن يحصي ثناه أو نـــداه

لقد ظفرت يد عَلِقَتْ نـداه ومن ناواه قد تبّت يـــداه" (الأصفهاني، 1986، الصفحات 181–182).

وفي التعليـق عـن هـذه الأبيـات يقـول رابـح بـونار أن علـي الزيتـوني مـدح في هـذه القصـيدة أحـد قضـاة المغـرب الأوسـط، وقـد " أشـاد فيهـا بعقلـه وتقـواه، وبعطفـه علـى اليتـامى وعمـوم النـاس، ونـوه بعدلـه وكرمـه وحزمـه(...) وأسـلوب الشـاعر جيـد ومعانيـه سـامية، ولـذلك اسـتحق عنـد العمـاد الأصـفهاني أن يرفعـه علـى شـعراء المغـرب الأوسـط في عصره" (بونار، دت، صفحة 229).

–ابن رشيق المسيلي القيرواني(ت 456هـ)

ولد بمدينه المسيلة سنة(390هـ) ونشأ بها وتأدب، ولما تألقت نفسه إلى التزيد من العلم وملاقاة أهل الأدب رحل إلى القيروان سنة(406هـــ) وأخذ عن جل علمائها، مدح المعز بن باديس فقربه من بلاطه، ثم سافر إلى صقلية وبقي فيها إلى أن توفي (رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، 1986، الصفحات 5–10)، اختلف في سنة وفاته وأرجح الروايات ما ذكره ابن خلكان حين جعلها " يوم السبت غرة ذي القعدة سنة ست وخمسين وأربعمائة" (خلكان، 1994، صفحة 86).

ترك ابن رشيق ما يزيد عن الثلاثين مؤلفا ما بين كتب ورسائل بعضها وصلنا وبعضها الأخر ضاع، ومن أشهر الكتب التي وصلتنا العمدة في صناعة الشعر ونقده، و قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، وأنموذج الزمان في شعراء القيروان، كما خلف لنا ديوانا شعريا، لكن ما يلحظ على شعره أنه " أقرب إلى شعر الكتاب والعلماء المتصنعين منه إلى شعر المطبوعين، وشهرته كأديب ناقد أكثر منها كشاعر" (بونار، دت، صفحة 221).

نظم ابن رشيق في موضوعات متنوعة كالمدح والرثاء والهجاء والوصف ومن شعره هذه القصيدته الطويلة التي رثا بها القيروان لما خربها بنو هلال حوالي سنة(449هـ) حيث يقول (رشيق، الديوان، 1989، صفحة 204):

كم كان فيها من كرام وسادة بيض الوجوه شـوامخ الإيمان

مُتَـعاوِنينَ على الدِّيانَةِ والتّقى للهِ في الإِسْـــرارِ والإِعْلان

وَمُهَذَّبٍ جَمّ الفَضائِلِ بـــاذِلٍ لِنَـــوالِهِ وَلعِرْضِهِ صَوَّانِ
وَأَئِمَّةٍ جَمَعُوا الْعُلُـــومَ وَهَذَّبُوا سنَنَ الْحَديثِ وَمُشْكِلَ الْقُرْآنِ
عُلَماءَ إِنْ سَاءَلْتَهُمْ كشَفُوا الْعَمَى بِفَقاهةٍ وَفَصـــاحَةٍ وَبَيانِ
....
كانَتْ تُعَدُّ القَيْـــرَوَانُ بِهِمُ إذا عُـــدَّ المَنابِرُ زَهْرَةَ البُلْدانِ
وَزَهَتْ على مِصْرٍ وَحُـقَّ لَها كَما تَـــزْهُو بِهِمْ وَغَدتْ على بَغْدانِ
حَسُنَتْ فَلـما أَنْ تَكامَلَ حُسْنُها وَسَمَـــا إِلَيْها كُلُّ طَرْفٍ رانِ
وَتَجَمَّعَتْ فيها الفَضائلُ كُلّـَها وَغَـــدَتْ مَحَلَّ الأَمْنِ الإِيمانِ
نَظَرَتْ لها الأَيَّامُ نَـظْرَةَ كاشِحٍ تَـــرْنُو بِنَظْرَةِ كاشِحٍ مِعْيانِ
حَتَّى إِذا الأَقْدارُ حُمَّ وَقوعُـــها وَدَنـــا القَضاءُ لِمُدَّةٍ وَأَوَانِ
أَهْدَتْ لَها فِتَنا كـــلَيْلٍ مُظْلِمٍ وَأَرادَهـــا كالنَّاطِحِ العيدانِ
بِمَصائِبٍ مِـــنْ فادِعٍ وأَشائِبٍ مَـــمَّنْ تَجَمَّعَ مِنْ بَني دَهْمانِ
فَتَكوا بأُمَّةِ أَحْـــمَدٍ أَتُراهُمُ أَمِنُـــوا عِقابَ اللهِ في رَمَضانِ
....
وَالمسْجِدُ المعْمُورُ جامِـــعُ عُقْبَةٍ خَـرِبُ المعاطِنِ مُظْلِمُ الأَرْكانِ
قَفْـــرٌ فَما تَغْشاهُ بَعْدُ جَماعَةٌ لِصـــلاةِ خَمْسٍ لا ولا لأَذانِ
....
حَزِنَت لها كُوَرُ الْعِراقِ بأَسْرِهـا وَقُرى الشَّآمِ وَمِصرُ والْخُرسانِ
وَنَزْعَزعَت لمصابهـــا وَتَنَكَّدَتْ أَسَـــفاً بلادُ الْهِنْدِ والسِّندانِ
....
أَتَرَى اللَّيالي بَعْدَ ما صَنَعَتْ بِنـــا تَقْـــضي لَنا بِتَواصُلٍ وَتَدانِ
وَتُعيدُ أَرْضَ الْقَيْرَوانِ كَعَـــهْدِها فيـما مَضى مِنْ سالِفِ الأَزْمانِ
مِنْ بَعْدِ ما سَلَبَتْ نَضائِرَ حُسْنِها أل أَيْـــامُ وَاخْتَلَفَتْ بها فِتَانِ
وَغَدَتْ كأَنْ لَمْ تَغْنَ قَطُّ وَلم تَكُنْ حَـــرَماً عَزيزَ النَّصْرِ غَيْرَ مُهانِ
أَمْسَتْ وَقَـــدْ لَعِبَ الزَّمانُ بأَهْلِها وتَقَـــطَّعَتْ بِهِمُ عُرا الأَقْرانِ

فَتَفَرَّقُوا أَيْدي ســـــبا وَتَشَتَّتُوا بَـــعْدَ اجْتِماعِهِمُ على الأَوْطان

يقارن ابن رشيق في هذه القصيدة –كما هو ماثل في أبياتها–بين صورتين للقيروان، صورة القيروان المطمئنة الآمنة، والأخرى صـــورة القيروان المنكوبة المخربة الخائفة المذعورة جراء الهجمات الهلالية، وعلى الجملة تعد هذه القصـــيدة من روائع مرثيات المدن في الشعر العربي ،إذ " تدل على طول نفس الشاعر وقدرته على تصوير احساسه لهذه النكبة وحسراته على العاصمة التي كانت تنافس بغداد وقرطبة عزة وازدهارا، فأصبحت عرضة للظلم والفساد والهوان " (الطمار، دت، صفحة 58).

–يوسف بن المبارك

شحت المصادر في التعريف بهذا الشاعر باستثناء ما ذكره صاحب الخريدة ،لما قال: " إنه من موالي بني حماد، وله في مدائحهم من الشعر ما أنسحب عليه ذيل حماد، وفي ذلك قوله:

هَنَأَكُمُ النَّصر ونيل النَّجاح في يومكم هذا بِسُمْر الرّماح
فأنتم الصِّيدُ الكرامُ الألى شادوا العلا بالنّائل المسْتَمَاح
ما منـكم إلاّ همام حوى مناقباً جُلَّى ومجـــداً صُراح
لا ترهبون الدهر أعداءكم وتمنعون العِـــرْض من أن يُباح
وتبذلون الـرّفْدَ يوم النّدى وتسْعرون الحـرب يوم الكفاح
وترفعون الجار فوق السُهى وتُكرِمون الضيف مهما استماح
لا زلتم تجنون زهـــر العلا في معـــرض العِزّ بحد الصّفاح" (الأصفهاني، 1986، صفحة 183).

في هذه القصـــيدة يعدد الشـــاعر مجموعة القيم الأخلاقية التي جعلها لصـــيقة بآل حماد فهم في نظره آل كرم وفضائل، وأصحاب مجد ظاهر، وأهل لصيانة العرض والمحافظة على الجار واكرام الضيف، وأنهم شجعان في خوض المعارك والحروب.

–ابن النحوي(ت 513هـ)

هو أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف، المعروف بابن النحوي، ولد سنه 434هـ ببلدة توزر جنوب القطر التونسي، انتقل إلى قلعة بني حماد التي اشتهر بها ونسب إليها، وكانت وفاته بها سنة 513هـ (البوصيري، 1984، الصفحات 5–7)،

يعدّ ابن النحوي من أهل العلم والفضل؛ عالما بأصول الدين، ومن كبار العارفين، وإلى جانب علمه وفقهه، كان بارعا في الأدب ونابغا في علوم اللغة، نظم في الشعر الديني وفي شعر التوسلات قصائد عدة، وتعد قصيدته المنفرجة أشهر قصائده، يقول في مفتتحها (البوصيري، 1984، صفحة 22):

إشتدّي أزمةُ تنفـرجي قد آذَنَ لَـيلُكِ بالبَلَجِ
وظلام الليل لــه سُرُجٌ حتى يغشــاه أبو السُّرُج
و سحاب الخير له مطرٌ فإذا جــاء الإبَّانُ تَجِي
و فــوائد مولانا جُمَلٌ لسُــروج الأنفسِ و المهَجِ
و لها أَرَجٌ مُــحْيٍ أبدا فَاقْصِدِ مَحْيَا ذَاكَ الأَرَجِ
فَلَرُبَّتَمَا فَـاضَ المَحْيَا بِبُـحورِ المَوْجِ من اللُّجَجِ

تندرج هذه القصيدة ضمن الشعر الديني وعلى وجه التحديد موضوع شعر التوسلات، وتتخلل هذه القصيدة " مواضيع فرعية أخرى تهدف في مجملها إلى إرشاد الزاهدين والمريدين –على اختلاف مقاماتهم ودرجاتهم–إلى الطريق الصحيح، والنهج القويم، لبلوغ أمانيهم، وتحقيق غاياتهم في الدنيا والآخرة (قهلوز، 2018، الصفحات 520–521)"، وإلى جانب تميزها بنفسها الصوفي العميق نجدها تتضمن أيضا الكثير من الحكم التي تدخل في باب الأمثال.

2–2 الكتابة النثرية

يؤكد كثير من مؤرخي الأدب أن النثر الجزائري خلال فترة حكم الحماديين وصل إلى قمة الازدهار الأدبي، حيث " تجاوزت الحركة الأدبية المغربية المتلقي السلبي إلى خطاب أدبي شامل منتج للمعرفة الأدبية تفسيرا، وتنظيرا وحوارا ومنهجا" (مغشيش، 2015–2015، صفحة 78)، والمطلع على ما ألف خلال هذا العهد من مصنفات وصلتنا –كمؤلفات ابن رشيق أو كتاب النهشلي– يدرك بحق تميز وغنى هذا العصر وازدهار الأدب والفكر فيه، ولعل ازدهار الكتابة في هذا العصر يعود لاهتمام الأمراء والحكام بالأدب والأدباء؛ فمنزلة الكتابة عندهم " لا يفوقها سوى منزلة أمراء الجيش، إذ كانوا هم عمدة الدولة في إنشاء التهنئات بالنصر وتقليد الوظائف ومكاتبات العمال والأمراء" (مغشيش، 2015–2015، صفحة 157).

لقد إزدان العصر الحمادي بنشاط كبير في ميدان الترسل وضروب النثر الفني، ومن أشهر كتاب هذه الفترة نذكر ابن الربيب التيهرتي وابن العالمي البجائي وابن الرشيق المسيلي، وأبو حفص عمر بن فلفول وابن دفرير وابن أبي الرجال التيهرتي وعبد الكريم النهشلي وغيرهم.

وأمام هذا العدد المعتبر من الكتاب نشير إلى أن جل نتاجهم ضاع ولم يصل منه إلاّ النزر القليل " ولو وصلنا بصفه واضحة لأمكننا الوقوف عند شتى صنوفه وفنونه، والظروف التي قيل فيها، ومنه تتبدد الغيوم التي تحول دون فهم قسم وافر من أدب المنطقة" (مغشيش، 2015–2015، صفحة 75).

وأمام هذا الشح الكبير الذي عدّ سمة بارزة في كتب الأخبار والسير التي أرَّخت للأدب الجزائري خلال العهد الحمادي، وخصوصا فيما تعلق بميدان الترسل وضروب النثر الفني، يتحفنا صاحب الخريدة بنصين نثريين الأول لابن دفرير والثاني لأبي القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن العالمي، وهذان النصان يعدان من أهم نصوص الفترة الحمادية.

يعدّ أبو عبد الله محمد الكاتب معروف ابن دفرير(المتوفى بعد547ه) أحد كتاب الدولة الحمادية، المتصرفين في الكتابة السلطانية في عهد سلطانها يحي بن العزيز الحمادي (الأصفهاني، 1986، صفحة 179)، وقد أورد صاحب الخريدة رسالة كتبها عن سلطانها يحي بن العزيز الحمادي حين سقوط الدولة، وقد فرّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد ببعض أمراء العرب بتلك الولاية، وهذا نصها:"كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرّ، رضىً بالقسم وتسليماً للقدر، وتعويلاً على جزائه الذي يجزي به من شكر، ونصلي على النبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بحر، وبعد :فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وضبع، استفز أهل موالاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنّا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفي من داء بداء، ويفرّ من صلّ خبيث الى حيّة صماء، حتى بغت مكرهم، وأعجل عن التلاقي أمرهم، ويرد وبال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا الى مظنة الأمنة، وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستنفر من كنّا نراه للمهم عدّة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتُثنَى عليه الخناصر" (الأصفهاني، 1986، صفحة 180).

يقوم نص ابن دفرير على فكرة محورية وهو الاستنجاد ببعض القبائل الهلالية، وفي الآن نفسه يعتذر عن هزيمة الحماديين أمام الموحدين مبررا هذه الهزيمة بخيانة من وضعت فيه الثقة فتنكر لها (بونار، دت، صفحة 230)، ولعل ما يلحظه المتلقي لهذه الرسالة– على الصعيد الفني– أن ابن دفرير قد اعتمد على أسلوب السجع في صياغتها، والسجع كما لا يخفى علينا كان خاصية فنية امتاز بها كتاب الدولة الحمادية.

والأسلوب ذاته سلكه أبو القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمي، الذي أورد له صاحب الخريدة نصا ترسليا له، لما عرف به قائلا: " من كتاب الدولة الحمادية، له من رسالة :ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا موالياً، وفي قضاء طاعتنا متباهياً، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزاً لهم عن الأكفاء،

ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدير، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور" (الأصفهاني، 1986، صفحة 181).

فهذه الرسالة لا تختلف في أسلوبها عن أسلوب رسالة ابن دفرير حيث امتاز ابن القالمي" في رسالته هذه بالسجع الخفيف، وبالألفاظ السهلة البليغة وبالاقتباس من القران" (بونار، دت، صفحة 231).

خاتمة

تعدّ الفترة الحمادية من أزهى الفترات التي شهد فيها الأدب الجزائري ازدهارا كبيرا، إذ اتسعت في هذا العهد الموضوعات الشعرية وتعددت أغراضه فإلى جانب الموضوعات الشعرية التقليدية ظهرت أخرى جديدة لم يعرفها الحماديون من قبل كالشعر القصصي عند قاضي ميلة، وشعر التوسلات عند ابن النحوي وشعر الموشحات عند يوسف بن المبارك. أما الكتابة النثرية فقد ضاعت وما وصلنا منها لا يدل على حجم الازدهار الثقافي والأدبي الذي شهدته إمارة الجزائر الحمادية.

قائمة المراجع:

- ابن خلكان. (1994). *وفيات الأعيان*. (تحقيق، إحسان عباس) بيروت: دار صادر.
- ابن رشيق. (1981). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه* (المجلد 1). (تحقيق، محي الدين عبد الحميد) بيروت: دار الجيل.
- ابن رشيق. (1986). *أنموذج الزمان في شعراء القيروان*. (تحقيق، محمد العروس المطوي وبشير البكوش) تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن رشيق. (1989). *الديوان* (المجلد 1). (تحقيق، عبد الرحمن باغي) بيروت لبنان: دار الثقافة.
- أحمد توفيق المدني. (1931). *كتاب الجزائر*. الجزائر: المطبعة العربية.
- البوصيري. (1984). *شرح المنفرجة لأبي الفضل النحوي*. (تحقيق، أحمد بن محمد أبو رزاق) المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الصفدي. (2000). *الوافي بالوفيات* (المجلد 19). (تحقيق، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى) بيروت: درار إحياء التراث.
- العماد الأصفهاني. (1986). *خريدة القصر وجريدة العصر. قسم شعراء المغرب*. (تحقيق، محمد المرزوقي وآخرون) الدار التونسية للنشر.
- رابح بونار. (دت). *المغرب العربي تاريخه وثقافته*. عين مليلة. الجزائر: دار الهدى.
- عبد الرحمن الجيلالي. (1965). *تاريخ الجزائر العام* (المجلد 1). الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية.
- عبد القادر قهلوز. (2018). قصيدة المنفرجة لأبن الجوزي دراسة وصفية تحليلية. *مجلة المدونة، الخامس*(الثاني).
- عبد الكريم النهشلي. (دت). *الممتع في صنعة الشعر*. (تحقيق، محمد زغلول سلام) الاسكندرية: منشأة المعارف.
- عبد المالك مغشيش. (2015–2015). النثر المغربي في القرنيين الرابع والخامس الهجريين. *أطروحة دكتوراه علوم*. باتنة، كلية الآداب واللغات.
- محمد الطمار. (دت). *تاريخ الأدب الجزائري*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر.
- محمد محفوظ. (1994). *كتاب تراجم المؤلفين التونسيين*. بيروت لبنان: دار الغرب الإسلامي.